مقالات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

الأعراف الأمازيغية (الثوابت والمتغيرات)
قبائل زمور نموذجًا (مصغرة)

د. عبد الرزاق بنواحي
أستاذ التاريخ والحضارة
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
مكناس – المملكة المغربية

مُلَخّص

تروم هذه الدراسة إلى التعريف ببعض الأعراف الأمازيغية التي نعتبرها من الروابط الاجتماعية المهمة للقبيلة فضلاً عن كونها لحامًا طبيعيًا لأواصر العلاقة لإحدى كبريات قبائل المغرب (اتحادية قبائل زمور) التي استوطنت مجالاً جغرافيًا رئيسًا بعد حركية تاريخية من الأطلس المتوسط والمجتمع الواحي بالصحراء. هذه الأعراف التي تفكك معظمها لأسباب، مرتبطة بالعولمة والتحديث، كانت سببًا في تقوية اتحادية قبائل زمور وتحكمها بالممر الرئيس للجيوش السلطانية وكذا الجحافل الاستعمارية طيلة القرن التاسع عشر إلى اليوم. وقد حاولنا تسليط الضوء على بعض هذه الأعراف التي تحول بعضها إلى عادات اجتماعية، وذلك باستقراء بعض النصوص المكتوبة باللغتين العربية والأجنبية واستعمال منهج المقارنة كتقنية معرفية للمؤرخ المعاصر قصد الوقوف على التقاطعات الممكنة بين أصناف ومراتب هذه الأعراف وأهميتها. علاوة على اعتماد الرواية الشفهية لتأكيد حضور أو أفول بعض الأعراف التي احتفظت بعض مناطق زمور اليوم سوى بشكلياتها ورموزها. أما مجال الدراسة فهو يجمع بين التاريخ والأنثروبولوجيا والعلوم الاجتماعية والفيلولوجيا (علوم اللغة)، مما يفيد أن البحث العلمي اليوم لا يمكن أن يقتصر على فن معين دون الاستعانة ببعض العلوم الإنسانية الأخرى التي توفر آليات ومناهج البحث المختلفة لدراسة الأعراف الأمازيغية والوقوف على تشكل القبيلة ورصد مكامن القوة والضعف لديها. وقد خلصنا إلى أهمية العرف في بناء مجتمع قبلي رصين قادر على استيعاب الاختلاف ومستعد لمواجهة كل الأخطار التي تهدده في مواجهته للعدو الخارجي. كما تم الوقوف على استمرارية العمل ببعض هذه الأعراف وإن اندثر معظمها في المنطقة لأسباب تعرضنا لتحليلها في المحور الأخير.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث:	٠٤ أكتوبر	٢٠١٩	
تاريخ قبـول النشـر:	١٨ يناير	٢٠٢٠	

كلمات مفتاحية:

الكتابات التاريخية؛ الأعراف الأمازيغية؛ الاستعمار الفرنسي؛ الموروث الشعبي؛ المجتمع المغربي

معرِّف الوثيقة الرقمي:

DOI 10.21608/KAN.2020.149650

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

عبد الرزاق بنواحي. "الأعراف الأمازيغية (الثوابت والمتغيرات): قبائل زمور نموذجا (مصغرة)".- دورية كان التاريخية.- السنة الثالثة عشرة- العدد السابع والأربعون؛ مارس ٢٠٢٠. ص ٨١ – ٨٨.

Corresponding author: abderazakbenouahi@gmail.com
Official website: http://www.kanhistorique.org
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Inquiries: info@kanhistorique.org

Open Access This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

نُشرت هذه الدراسة في دّوريةُ كَان التَّارِيْخية للأغراض العلمية والبحثية فقط، وغير مسموح بإعادة النسخ والنشر والتوزيع لأغراض تجارية أو ربحية.

مُقدِّمَةٌ

العرف قاعدة قانونية تعود الناس على اتباعها في المعاملات اليومية منذ زمن طويل، حتى أضحت في شعورهم إلزامية وفي واقعهم ضرورية لابد من احترامها. وهو مجموعة مساطر غير مكتوبة كما هو الحال بالنسبة للتشريع الذي يلتجأ إليه الفقهاء في كل النوازل والمستجدات اليومية من أجل أخذ رأيها في مناحي الحياة. كما يصنفه البعض من مصادر التشريع في العلوم الدينية والإنسانية والاجتماعية مادامت أسسه مبنية على العدل والمساواة بين الأفراد والجماعات. ويعتبر العرف الأمازيغي العمود الفقري للقبيلة الذي بواسطته تستطيع الاستقامة على مبدأين أساسيين: أولها له صفة مادية يتمحور حول إتباع الجماعة لسلوك معين بشكل ثابت ومستقر، والآخر يكون معنويًا ويرتبط ذهنيًا بشعور إلزامي عند الناس بضرورة تنفيذ مقتضيات هذه القواعد التي درجوا على اتباعها جيلاً بعد آخر وعلى مدى زمن طويل حتى أصبحت ضرورية في التشريع ولا مناص من عدم تطبيقها قصد المحافظة على الذاكرة التاريخية والمعارف التقليدية.

فرصد الثوابت من أعراف قبائل زمور يتطلب مني الوقوف أولا على بعض الخصائص الجغرافية والتاريخية لاتحادية زمور، ثم بعد ذلك جرد بعض النماذج من هذه الأعراف التي اشتهرت بها هذه المنطقة وخاصةً منطقة "مصغرة" التي اتخذناها كنموذج مصغر لهذه الدراسة لاعتبارات مرتبطة بالموقع المحاذي لقبائل كروان بمكناس، ولإسهامات رجالاتها في مقاومة الاستعمار الفرنسي باتخاذها قاعدة عسكرية للواجهة.

وقد عرف الاهتمام بالتاريخ الأمازيغي تطورا مهما، بالنظر إلى النتائج التي توصل إليها الباحثون في تقديم صورة واضحة المعالم حول طبيعة البنيات الاجتماعية والثقافية لبعض الاتحاديات والتنظيمات القبلية التي يعتبر العرف هو اللحام الرئيسي الذي يجمع بينها. حيث استطاعت تلك الدراسات، خاصة بعض الهجمة الاستعمارية على العالم الإسلامي، فك لغز الأوفاق القبلية والأعراف التي تنظم العلاقات بين القبيلة على المستوى الداخلي والخارجي التي غالبا ما تتسم بنوع من التشابه والتقاطع بين مختلف مناطق المغرب.

ويمكن ترتيبها في عدة محاور منها نظام القانون العام، الذي يشمل طرق تسيير الجماعة واختصاص القيادة المتمثلة في شيخ القبيلة "أمغار" وكذلك السلطة التي كان يتمتع بها على المستوى التشريعي والتنفيذي، إضافة إلى بعض القواعد التي لها علاقة بالتنظيم القبلي كالتضامن والتعليم والتعويض المالي والضريبي وقضية الدفاع عن حوزة القبيلة وصد العدوان وفترات السلم التي لها تدبيرها العرفي الخاص. ثم هناك مجال الأسرة وما يرتبط بها من أعراف حول الرعاية الاجتماعية وقضية الزواج وما يرتبط بها من إجراءات. إضافة إلى محور الأرض أيضًا والذي له علاقة بمجموعة أعراف لها علاقة بكيفية تنظيم عملية الحرث وشروط التناوب ونظام السقي باعتباره المجال الحيوي الذي قد يصبح التحكم فيه وفي تدبيره أساس المنازعات بين مكونات القبيلة.[1]

نروم من خلال هذه الدراسة تحديد المجال الترابي لمناطق زمور المعني بالدراسة، لمحاولة إبراز أهم الأعراف التي كانت تنظم العلاقات بين هذه القبائل، على مستويات ثلاث بشكل دقيق ومركز ودون الدخول في غمار التفاصيل. بالنسبة للمستوى الأول الذي يمكن الحديث عنه بداية فهو نظام القبيلة، الذي يتطلب الكشف عن بعض مكونات السلطة داخل القبيلة وفروعها ودورها في التدبير، ثم الحديث عن النظام الأسري ويضم الحديث عن الأعراف المنظمة للعائلة والزواج والتركة. وفي الأخير مقاربة أعراف مرتبطة بالعلاقات مع القبائل المجاورة زمن الحرب والسلم.

وسأتناولها كباحث في التاريخ وليس من زاوية أنثروبولوجي أو متخصص في القانون، وذلك باتباع منهج تحليلي لتفكيك ما تبقى من هذه النماذج من الأعراف. مع العلم أن معظمها اليوم قد عصفت به رياح التغيير لأسباب عديدة سوف نذكر منها ما يستقيم مع هذا العمل. فما هي إذن أهم الأعراف المنظمة لقبائل زمور، وما هو الثابت والمندثر منها والذي مازال قائمًا إلى اليوم؟ وما هي أهم المتغيرات التي لعبت دورها في محو وزوال باقي الأعراف الأخرى؟

ولعل الدافع الأبرز في تناول هذا الموضوع هو ذاتي بالدرجة الأولى، أي مرتبط بشخصي كباحث في التاريخ المعاصر ولكوني أنتمي إلى إحدى قبائل زمور والتي عشت فيها تنفيذ مجموعة من مقتضيات الأعراف الأمازيغية خاصة على مستوى الأرض والأسرة والعلاقات الاجتماعية. كما إني ما زلت أعيش من بين أحضانها وأحضر أحيانًا بعض النقاشات المتوترة حول إنزال أحد الأعراف في بعض المجالات التي لا يتسع صدرها لذلك. وهذا معناه أننا نعيش نهاية بعض القوانين العرفية في بعض جوانب الحياة القروية التي أصبحت غير قابلة تمامًا للتطبيق. والعامل الآخر الذي دفعني لذلك هو قلة المادة المصدرية بالنسبة للباحثين في مجال التاريخ المنتمين لقبائل زمور. فإذا استثنينا بعض الدراسات والكتابات المغربية[2] والأجنبية التي لا تكفي

لسد شهية الباحث المتخصص، فإن المصادر والمراجع نادرة ولا تفي بالحاجة العلمية المطلوبة من أجل إعطاء تصور حول المنطقة المعنية بالدرس.

أولاً: الأعراف الأمازيغية والكتابات التاريخية

بالنظر إلى المصادر التي اهتمت بهذا الموضوع، يمكن التمييز بين مصادر قديمة تحدثت عن الليبيين (الأمازيغ) من خلال نصوص وأحاديث لهيرودوت (٤٨٩-٤٢٥ ق.م)[٣] وقد أمدنا صاحبها بنبذة مختصرة عن أحاديث وعلاقات الليبيين بجيرانهم الشرقيين. ويعتبر الكتاب من أقدم المصادر المكتوبة التي تتحدث عن شعوب البحر الأبيض المتوسط خلال القرن الخامس قبل الميلاد، ويتضمن حسب المترجم معلومات مهمة نشرت وترجمت إلى عدة لغات. ثم هناك أيضًا كتب تعود إلى المرحلة الرومانية وآثارهم بالمغرب خاصة بمدينة وليلي الأثرية[٤]. وشعوب موريتانيا الطنجية وعلاقاتها مع شعوب البحر الأبيض المتوسط، ومقاومة هذه القبائل للاستعمار الروماني[٥]. أما الكتابات التاريخية العربية، فقد خصصت حيزًا هامًا لتاريخ القبائل الأمازيغية المستقرة والمرتحلة نتيجة للظروف التاريخية ووفود عناصر جديدة من الشرق العربي من أجل نشر الإسلام وما ترتب عن تلك العملية من تدافع وحراك بين السكان الأصليين والوافدين. ومن بين هذه المصادر ذات الطابع الإخباري، جمهرة الأنساب العرب لابن حزم[٦]والبيان المعرب لابن عذراي المراكشي[٧] وكتاب العبر لابن خلدون[٨]... وغيرها من تلك التي تناولت أصل البربر والمجال الذي كانت تستغله والتفاعل الحاصل بينها وبين القبائل العربية القادمة من الشرق.

وخلال القرن التاسع عشر برزت دراسات من نوع آخر حول القبائل الأمازيغية ركزت على الإنسان والأرض والظواهر الاجتماعية والبيئية المرتبطة بها. وكذا الوقوف على تنظيماته القبلية من الداخل والخارج، بمعنى آخر ركزت على مستوى التاريخ والعرق واللغة. تلكم الدراسات التي بدأت مع احتلال الجزائر سنة ١٨٣٠م دشنها علماء الانتربولوجيا والسوسيولوجيا والإثنوغرافيا، إضافة إلى التقارير العسكرية ونتائج أبحاث علماء التاريخ والجغرافيا المقارنة واللسانيين وغيرهم، وكانت لها أهداف واضحة، اتسمت بجمع المعلومات الكافية حول الأرض والإنسان وتفاعلاته من أجل احتلاله والسيطرة على مقوماته. وهي دراسات استشراقية استعمارية متخصصة كانت أولى اهتماماتها معرفة خصائص الحقب التاريخية الماضية ابتداءً من عصور ما قبل التاريخ إلى الفترة المعاصرة مرورًا بالمراحل الوسيطية. وقد خلصت إلى أن لغة تيفناغ هي لغة التواصل واللغة المشتركة بين جميع القبائل الأمازيغية التي باتت اليوم معروفة في تونس والشمال الشرقي للجزائر وفي المغرب وشمال الصحراء.[٩]

وأهم الذين نشروا وألفوا حول الأمازيغ وأصبحت دراساتهم معتمدة في كل التحليلات نجد ماسكراي وروني باسيت René Basset وستيفان كزيل Stephane Gsell. وCharles André Julien وGabriel Camps الذين نشروا وألفوا حول الأمازيغ مابين (١٨٦٠-١٩٣٠) وما زالت كتاباتهم معتمدة كمصادر مهمة إلى يومنا هذا.[١٠] إضافة إلى نتائج الدراسات الأركيولوجية التي أجريت في شمال إفريقيا والتي جاءت متناسقة مع الأبحاث السالف ذكرها.

وتجدر الإشارة إلى أنه خلال الفترة الاستعمارية، حظي تاريخ الأمازيغ باهتمام خاص من طرف الكتابات الأجنبية، وقد بلغت حد الاستهتار في تحليلها بساكنة شمال إفريقيا. فقد عبر أحدهم أنه خلال فترة الاحتلال تنبهوا إلى وجود فئتين من الناس اختلفت ألسنتهم وعاداتهم وأعرافهم، واستطاعوا بعد التحريات الوقوف على قبائل أمازيغية وأخرى عربية لا تتحدث نفس اللغة وملامحهم الفيزيائية ووسائل عيشهم مختلفة. مما فتح شهية المهتمين بالدراسات الإثنوغرافية والمؤرخين والأدباء.[١١]

ثانيًا: الإطار الجغرافي والتاريخي لقبائل زمور

تعتبر الدراسة المونوغرافية في الوقت الراهن حافزا مهما في مجال البحث التاريخي، وقد عرفت تقدمًا خلال الدراسات الحديثة وساهمت بشكل كبير في تطور الاسطوغرافية المغربية محليًا وإقليميًا. وحول مدلولها فكلمة زمور حسب لاووست Laoust(١٨٧٦-١٩٥٦) بالأمازيغية تعني الزيتون البري وهي موجودة بكثرة في شمال إفريقيا، أما عن سبب التسمية فيرجع إلى الأسطورة التي تحكي أن أحد شرفاء قبيلة آيت مكيلد ويدعى سيدي بوبكر، التقى رجلان من قبيلتين مختلفتين فسأل الرجل الثاني ما اسم الشجرة الموجودة بكثرة في منطقتك فقال له أزمور فقال له من الآن فصاعدا ستسمى قبيلتكم بزمور وستكونون شبيهين بجدع شجرة الزيتون خشنين وأقوياء.

فاتحادية زمور قبيلة أمازيغية، وهي موطن مدينة الخميسات وتيفلت، تحدها شرقا قبيلة كروان، وشمالاً قبيلة بني احسن، وغربًا اتحادية قبائل زعير، وجنوبًا قبيلة زايان وقبيلة أيت سكوكو. وفي اراضيها الشمالية يقع سد القنصرة، ويجري في أراضيها الغربية وادي أبورقراق الذي يفصلها عن قبائل زعير

وقبائل زمور أمازيغية الأصل، وهم نصف رحل، ويجاورون قبائل زعير في الغرب، وقبائل بني احسن العربية في الشمال،[١٢] والسكان الأصليون من قبائل زمور ينتمون إلى سلالة آيت أومالو التي يتمركز موقعها في حوض أم الربيع و التي كانت معروفة بالشجاعة ورفضها المطلق لسلطة المخزن، ونظرا للاضطرابات السياسية التي مرت في تاريخها الحديث وخاصة بعد انهزام القائد أقبلي وعدم رضوخهم لأوامر القائد موحى أوحمو الزياني، نزح سكان قبيلة آيت عمرو إلى الهضبة الوسطى، فوجدوها أكثر ملائمة لنمط عيشهم. وقد حافظوا على مقومات النظام القبلي لكن مع دخول الاستعمار سنة ١٩١٥م واكتشاف معدن الزنك بقريت سنة ١٩١٧م واكتشاف عين لآلة حيا سنة ١٩٢٤م بدؤوا يندمجون شيئا فشيئًا في المنطقة فأنشئوا مركز والماس، ثم توسعت دوائرهم الترابية إلى أراضي تفلت والخميسيات وغرب مكناس، وبعد استقرارها في مجالاتها الحالية، وبعد أن تقوى نموها الديمغرافي، أصبحت عبارة عن اتحادية قبلية كبيرة يجمعها اسم مشترك عام وهو(زمور).[١٣]

وقد عرفت علاقات المخزن وقبائل زمور مراحل المواجهة والسلم منذ القرن السابع عشر،[١٤] ويرى ليسن LESNE [١٥] أنه لما تعبت هذه القبائل في مواجهة المخزن خاصة خلال حكمي المولى سليمان والمولى عبد الرحمان، وبوصول السلطان محمد بن عبد الرحمان إلى الحكم سنة ١٨٦٠م نهجت سياسة القرب من السلطان الجديد قصد وضع حد للحركات التأديبية التي كان يمارسها أبوه على ساكنة زمور[١٦] من أجل أداء الضرائب وإخضاعها. فكان أول عمل إيجابي قامت به هذه القبائل اتجاه السلطان الجديد هو تأمين الطريق الرابطة بين مراكش عاصمة إقامته نحو فاس من هجمات قبائل بني احسن. فتوجهت تجريدة من الجيش الزموري ورافقت السلطان لحمايته من تحرشات القبائل على طول الطريق وصولا إلى العاصمة فاس. أما العمل الثاني الذي يحسب لها أيضًا على الأقل خلال المراحل الأولى، لإبداء حسن النية، هو التصدي لقبائل كروان وبني مطير ومجاط بعد حصارها للعاصمة الإسماعيلية مكناس، ومحاولاتهم السطو على ممتلكات ساكنتها. فقامت قبائل زمور بناء على طلب السلطان بتوقيف هذا العدوان وإعادة الهدوء والأمن إلى المدينة. فقدم السلطان إلى قبائل زمور بنفسه – على عادة الملوك- لتقديم الشكر والتنويه بهم على صنيعهم بمكناس. كما جازاهم على فعلهم هذا بإطلاق سراح أحد قادتهم القائد الجيلالي بن المبارك الذي كان مسجونا بالصويرة على عهد أبيه السلطان المولى عبد الرحمان.[١٧] وبعد ذلك، سمح السلطان لقبائل زمور باختيار قوادهم بأنفسه دون تدخله أو توجيه منه. فاختارت كل قبيلة قائدا منهم يمثل توجهاتهم. ورغم هذه العلاقة بين السلطان وقبائل زمور فإن هذه الأخيرة لم تخضع للمخزن بالشكل المرغوب.

انطلاقًا من هذا الحدث والتفاعل الذي حصل بين الطرفين، أبرم السلطان مع هذه القبائل صفقة تاريخية وسمح لهم بتطبيق نظامهم العرفي وتنفيذ مقتضياته دون ضغط من المخزن قد يؤثر على السير الطبيعي لحياة قبائل زمور. وأصبحت تمتاز بخصوصية لم تستفد منها باقي القبائل الأخرى. مما جعل المرحلة الموالية خلال فترة السلطان الحسن الأول التي تتميز بفترة السلم والهدوء حاسمة في إخضاع قبائل زمور تدريجيًا.[١٨] ومن خلال هذا الإطار التاريخي، يتضح أن أوفاق هذه القبائل ارتبطت بفترات السلم واستراحة محارب، وأن رفع يد المخزن عن قبائل زمور أعطى النفس لتنفيذ مقتضيات الأعراف الزمورية بعد أن كانت في حكم وقف التنفيذ خلال المراحل السابقة على ما يبدو.

فأعراف قبائل زمور إذن لها علاقة بالوضعية السياسية للبلاد وعلاقات هذه القبائل بالمخزن الذي كان يتدخل أحيانا لتهذيبها من أجل تكسير الروابط الاجتماعية وإضعاف المكونات البشرية التي تقطن المجال. وإن كنت لا أتفق مع الفرنسي ليسن Lesne في قضية التحكم في تدبير العرف الأمازيغي من طرف المخزن. على الرغم من محاولات تفتيت العشائر بتفضيل بعضها عن البعض الآخر بالدعايات المغلوطة التي مفادها أن بعض القبائل الزمورية أكثر وطنية وتبعية من الأخرى. ومحاولة ترسيخ فكرة النسب الشريف للبعض منها دون الآخر وذلك قصد تعميق سياسة التفتيت وزرع الفرقة من أجل السيطرة والتحكم.

إن النموذج الذي سوف نركز عليه في هذه المداخلة ودراسة بعض أعرافها هي القبيلة التي أنتمي إليها وهي من القبائل الزمورية الواقعة شرق مدينة الخميسات وتابعة لها إداريًا على الرغم من قربها من مدينة مكناس. هذه القبيلة اسمها قبيلة مصغرة أو (إمصغرن) كما ينطق بها الأمازيغ، وهي من القبائل التي يتكون منها اللفيف الذي يعرف بآيت علا آيت مهدي وآيت جبل الدوم الشرقيين، وعددهم خمس قبائل مصغرة، آيت سيبرن، آيت حلي، آيت ميمون، آيت حمو أو بولمان،[١٩]

أما كلمة امصغرن التي تطلق على هذه القبيلة حاليا، فهي تدل على اليبوسة، إذ معناها الميبسون أو بمعنى آخر المهلكون، حيث يقال بالأمازيغية: يصغر بوضع سكون على الأحرف الثلاث

ابتداء من حرف الصاد، أي يبس ومعناها أهلك.[٢٠] ويرى أحمد بوبية أن هذه الكلمة محرفة عن أصلها إذ لاتوجد هناك قبيلة أمازيغية بهذا الاسم وإنما الصواب "مطغرة" بالطاء ومدغرة وهي كلمتان تتكون من مط-غرة أو مد غرة بمعنى: هل يبس؟ فكلمة يغر هي يبس أو نشف. أما صاحب معلمة المغرب فيرى أن مصغرة هي مضغرة أو مدغرة وينحدر أهلها من سجلماسة وواحات الصحراء الشرقية بين توات وفجيج بل كانت فجيج في القرن الثامن الهجري مركزا للمصغريين.[٢١]

وقد اكتفى الباحث مولود رشاد بتحديد موقع هذه القبيلة وتسميتها من خلال اعتماده على معلمة المغرب وعشاق مولود الذي ربط تاريخ قبيلة مصغرة بأحد القواد الذين سيطروا على مصغرة الشمالية والجنوبية وانخراطه في تسهيل عملية المد الاستعماري لمنطقة زمور.[٢٢] ويمكن اعتبار تحليل أحمد بوبية من أهم ماكتب عن هذه القبيلة العتيدة بحيث ركز في تحليله على المسؤولية الجسيمة التي كانت تتحملها هذه القبيلة بتواجدها في شرق قبائل زمور وشمالها بحيث تفصل بين زمور وكروان الشمالية وبني احسن من الجهة الشمالية. وبذلك اعتبرها بمثابة جدار مانع يحصن زمور، كما أشار إلى دورها في حماية الجهة الشرقية لزمور "وكانت قبيلة قوية الشكيمة صلبة الانقياد تتمتع بشجاعة نادرة سواء في ذلك نساوها ورجالها..." كما سجلت بعض الكتابات وقوفها في وجه الاستعمار الفرنسي ومنعها من السيطرة على أراضيها إلا النزر القليل منها كما وقفت في وجه الظالمين رغم كيد الكائدين وزج بأبنائها في السجن.[٢٣]

أما فيما يخص حدود قبيلة مصغرة، فيحدها من جهة الشمال قبائل بني احسن والخزازنة من بني عمرو، ومن الغرب آيت سيبرن وقبليين وآيت يدين، ويفصل بين هذه القبائل ومصغرة الطريق الوطنية التي تربط بين مدينة مكناس والرباط،[٢٤] أما من الناحية الشرقية فتحدها قبائل كروان الشمالية ويفصل بينها وبين مصغرة بناحية عين الجمعة الطريق الرابط بين سيدي سليمان بمكناس وبذلك لا تبعد العاصمة الإسماعيلية عن مصغرة إلا بحوالي خمسة وعشرين كلم وتتكون من الأفخاذ التالية:

- آيت أوفزار، وتقع في الشمال الغربي للقبيلة،
- الحوادف، ويصطلح عليهم بالأمازيغية " إحذافن" وتقع بالشمال.
- آيت ولان
- آيت يوسي
- آيت فزاز، وهي تقع وسط القبيلة على حدود كروان الشمالية، وبها موضع يسمى اشبيلية، نسبة إلى أن فئة من سكان القبيلة جاؤوا من ناحية اشبيلية بالأندلس حيث كان البربر ينزلون.
- آيت مهدي، توجد مساكنهم على الطريق الرابطة بين مكناس والخميسات بالموضع المعروف اليوم بالصفاصيف، وهي قرية حديثة البناء بدأت تظهر للوجود بعد الحرب العالمية الثانية، وتأسست بها مدرسة ابتدائية في الأربعينيات ومركز صحي وهي لا تبعد عن حدود مصغرة وكروان إلا بحوالي ٣ كلم، ونتيجة للصراع القائم بين زمور وكروان حول السوق الأسبوعي الذي أقيم بعين العرمة ونظرا للصدامات المتكررة بين هذه القبيلة ارتأت السلطات بناء سوق أسبوعي خاص لزمور بمركز الصفاصيف بجانب الطريق الوطنية الرابطة بين مكناس والخميسات. كما أن الصراع الدائم بين كروان وزمور مرده في اعتقادنا إلى الحملات التأديبية التي كانت تقودها قبائل زمور ضد أهل مجاط وكروان بطلب من السلطان محمد بن عبد الرحمان –كما سبق الذكر-إثر الهجومات المتكررة لهؤلاء على المدينة. وإلى النزعة القبلية التي كانت تطبع العلاقات بين الجهتين إضافة إلى الدور الاستعماري في زرع الفرقة بين القبائل ومنع كل التحالفات التي من شأنها تعقيد مهمة الاحتلال انسجاما مع شعاره " فرق تسد".

ثالثًا: أعراف قبيلة مصغرة

١/٣-الثوابت والمتغيرات

لابد من الإشارة بداية إلى أن الهدف من هذه المداخلة ليس هو التأصيل لقضية الأعراف الأمازيغية أو محاولة القيام بجرد أنواعها فهي قديمة قدم الوجود الأمازيغي، كما أن مهمتنا أيضًا لا تنحصر في التعريف بالعرف ومقاصده لكونه أسال مداد كثير من الباحثين والمتخصصين في مجالات العلوم الإنسانية.

يطلعنا روبير أسبينيون[٢٥] على مجموعة من الأعراف التي تمت دراستها بقبائل زيان، والتي تشبه في معظمها بعض الأوفاق القبلية التي اشتهرت بها جل المناطق الأمازيغية، على المستوى الاجتماعي والسياسي والاقتصادي، فعلى المستوى الاجتماعي اشتهرت قبيلة مصغرة كقبيلة أمازيغية تنتمي لاتحادية قبائل زمور ببعض أنواع الزواج كزواج أمحارس، أو أمزال (بتشديد حرف الزاي) وهذا النوع من الزواج له جذور

تاريخية قديمة ومضمونه أن القبيلة تقوم بتزويج أحد الغرباء الذين يدخلون منطقتهم أخذا بعين الاعتبار وضعيته كعابر سبيل أو لكونه لاجئا بسبب ارتكابه جرمًا معينًا دون الإفصاح عنه، وفي عرف القبيلة تقوم بإعطائه حماية مشروطة بالاستقامة وحسن السلوك،[٢٦] وبعد اجتماع هياكل القبيلة والبث في معضلته تقرر احتضانه من عدمها بتزويجه إحدى فتيات القبيلة مقابل العمل لدى والديها لمدة عشر سنوات. وذلك عبر مراحل تقررها أجهزة القبيلة تصب في ضمان حسن سلوكه. وقد اشتغل الفرنسيون حول أصول هذا العرف لاكتشاف وجوده عند بعض الأمم القديمة كقصة النبي موسى التي وردت في القرآن الكريم مع بنات شعيب. مما يبرز أن هذا العرف قديم ورثته القبائل الأمازيغية عبر امتداد حضاري قديم، وهناك أنواع أخرى من الزواج أيضًا لم نعرض لها في هذا الباب، كما أن الطقوس المرتبطة بهذا النوع من الارتباط له قوانينه العرفية كذلك تسطرها القبيلة ويوافق عليها الجميع.

أما العرف الآخر الذي نريد تقديمه كمثال على الأعراف الأمازيغية فهو المشهور بعرف تاضا، ومفهوم تاضا يعني الرضاعة، وهو عرف دأبت على ممارسته قبائل أمازيغية مختلفة ولازال قائما في بعض المناطق الزمورية، أو على الأقل هناك موسم سنوي يعرف بهذا العرف بمنطقة ولماس وتيداس. ومن أهم مقاصده التعاضد وربط علاقات الأخوة بين الأفراد. ويتم هذا التعاقد بحضور الجماعة الممثلة لكل قبيلة، حيث يتم تبادل حليب ثدي المرأة التي تستمد منه العلاقة اسمها. وذلك بتبادل الحليب مؤسسة بذلك علاقة الأخوة. وتنقسم التاضا إلى قسمين تاضا صغيرة وهي عبارة عن تحالف يضمن الأمن بين الأطراف المتحالفة والتاضا الكبيرة تحددها قوانين صارمة يصعب على المرء خرقها وكل فرد مطالب بالامتثال للالتزامات التي يفرضها تحالف تاضا وتسمى كذلك "الخاوا" وتتخذ في بعض الأحيان صبغة القداسة.[٢٧] وحسب بعض الروايات الشفوية فإن قبيلة مصغرة كانت تستعملها مع بعض القبائل دون غيرها، ولعلها قبيلة آيت ميمون المحاذية لها من جهة الغرب على الطريق الوطنية الرابطة بين مكناس والخميسات. ولكنها اليوم قد اندثرت ولم يعد لها وجود لأسباب مختلفة.

الخماس: هي أشكال من أشكال التعامل على المستوى الاقتصادي، فالخماس في العرف الأمازيغي منتشر وله ضوابط تحكمه وتختلف شروطه حسب المناطق البورية والسقوية. بالنسبة لمنطقة مصغرة فجلها مناطق بورية باستثناء تلك المحاذية لسد القنصر التي تسفيد من آليات عرفية تختلف عن مناطق الداخل. وبالتالي فالاختلاف الملحوظ يحدده الماء كعنصر مؤثر وفاعل في رسم خارطة الطريق لكل عقد عرفي يهم المجال الفلاحي. وهناك أعراف أخرى على مستوى تربية المواشي وطرق تقنينها لها علاقة كذلك بعناصر أخرى تحددها وفرة المياه والمراعي والأمن وغيره. لكننا اقتصرنا من خلال هذه النماذج على بعض الأعراف التي كانت مشهورة وهي كثيرة ومتعددة، لكن طبيعة الموضوع جعلتنا نكتفي بهذه العناصر التي ذكرناها، فما هي إذن أسباب اندثار هذه الأعراف؟

٢/٣-المتغيرات التي ساهمت في إنهاء بعض الأعراف

لا شك أن الاستعمار الفرنسي حاول جاهدا الإبقاء على بعض الأعراف التي تخدم مصالحه، وتوافق مخططاته المبنية على التوسع والتحكم. لكن هناك تحديات أخرى ساهمت في الاستغناء عن بعض هذه الأعراف التي أصبحت متجاوزة، ومنها التحول الحضاري الذي بدأ يطرأ على المجتمعات الأمازيغية بصفة عامة والتنافس الثقافي الذي فرضه الواقع. فهناك أسباب مرتبطة بالتحولات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية وكان لظهور الآلات الفلاحية التي استفاد منها العالم القروي سببا في اندثار بعض الأعراف المرتبطة بنظام الأرض وتربية المواشي. إضافة إلى التهميش الذي خضع له العالم القروي بصفة عامة وكذا فترات الجفاف المتكررة التي دفعت إلى الهجرة نحو المدن، مما فرض على الساكنة الخضوع لقوانين مرتبطة بمجتمع المدينة. وكان للفقر والحاجة والتوجه نحو تغيير السلوك الاجتماعي بسبب الاحتكاك بمجموعات بشرية لها قناعات مختلفة والتأثير بالمحيط الخارجي والانخراط في التعلم ومصاحبة نماذج مجتمعية جديدة. إضافة إلى انتشار السلم الاجتماعي ووقف كل المناورات والتحرشات القبلية التي كانت تفرض تطبيق بعض المظاهر العرفية كتاضا مثلاً من أجل الحماية المتبادلة. علاوة على تعريب المناطق الأمازيغية والانفتاح على الثقافات الأخرى.

كما أن العولمة عملت على تغيير التعامل اليومي والعلاقات القبلية رغم صمود بعضها أمام حاجيات وتطور المجتمع ومقاومة بعض الأعراف للتحديات لا يعني عدم الرضوخ للمنظومة الكونية التي أصبحت فاعلة وحاسمة في القضاء والتأثير ليس فقط على العرف ولكن استطاعت خلق شرخ واضح بين الثقافة المحلية والوطنية والدينية.

خَاتِمَةٌ

حاولنا من خلال هذه الدراسة التعريف ببعض القوانين العرفية السائدة بمنطقة زمور التي تضم قبائل كثيرة، كما حاولنا من خلال هذه المداخلة التعريف بإحدى قبائل زمور التي أبانت عبر تاريخها عن قوة بأسها وعن انخراط أهلها وساكنتها في مواجهة الاستعمار رغم غياب المراجع والكتابات التي اهتمت بالمنطقة. ونعتبر هذه المحاولة بمثابة إثارة فقط لموضوع هذه القبائل التي لحقها من التهميش بسبب بسالتها ومقاومتها للاستعمار الفرنسي الذي اتخذ من منطقة مصغرة قاعدة عسكرية تباشر بها مراقبتها لباقي المناطق المنتمية لقبائل زمور. كما أن وجود هذه القبيلة على الحدود من كروان الشمالية جعلها حسب أحمد بوبية تشكل دعامة أساسية وحاجزًا منيعًا أمام تهديدات قبائل مجاورة. كما أن دراسة أعراف هذه المنطقة قد تساهم في رصد درجة تعايش العرف مع باقي القوانين السائدة بالمنطقة وكذا محاولة الوقوف على التحولات التي طرأت على استعماله منذ الفترات القديمة إلى الوقت الراهن. كما سمحت هذه الدراسة بالوقوف على العلاقة التي كانت تربط السلطة بالقبيلة ودرجة التعايش مع الأحكام الجائرة الاستعمارية التي فرضت بالقوة على ساكنة منطقة زمور عمومًا وسكان قبيلة مصغرة على وجه الخصوص.

الهَوامِشُ:

(١) روبير أسبينيون، **أعراف قبائل زايان**، ترجمة محمد أوراغ، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ٢٠٠٧، ص.١١٩.

(٢) نذكر من هذه الكتابات ما ألفه ابن المنطقة محمد بوبيا (١٩١٨-١٩٧٨) وكتابات مولود عشاق حول تاريخ منطقة زمور، وكذا رسالة الدكتوراه التي ناقشها الطالب مولود رشاد بتاريخ ٢٠١٦/١١/١٧ بكلية الآداب ظهر المهراز فاس حول موضوع "مدينة الخميسات وباديتها على عهد الحماية ١٩١١-١٩٥٦" إضافة إلى الكتابات الأجنبية في شخص Marcel LESN.

(٣) **أحاديث هيردوت عن اللبيين (الأمازيغ)** ترجمة د. مصطفى اعشي، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية: مركز الدراسات التاريخية والبيئية، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ٢٠٠٩ ص٥.

(4) Jérôme CARCOPINO, la Fin du Maroc Romain, Mélanges d'Archéologie et d'Histoires pp :349-430 www.persée.fr, vu le 11/11/2018.

(5) René Rebuffat, les Tribus en Maurétanie Tingitane, pp .23-24-25..etc. www.pérsée.fr vu le 05/12/2018

(٦) محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي (ت. ٤٥٦ه)، **جمهرة أنساب العرب**، تحقيق لجنة من العلماء، نشر دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨٣م.

(٧) ابن عذراي أبو عبد الله محمد بن محمد (ت. ٦٩٥ه)، **"البيان المعرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب"**

(٩) عبد الرحمان بن خلدون، **"العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومَنْ عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، ج٦.

(٩) غابرييل كامب، **البربر، ذاكرة وهوية**، ترجمة عبد الرحيم حزل، مطبعة إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ص. ٤٣-٤٤

(١٠) العربي عقون، **الأمازيغ عبر التاريخ، نظرة موجزة في الأصول والهوية**، الطبعة الأولى، مطبعة التنوخي للطباعة والنشر الرباط ٢٠١٠م، ص١٤.

(11) Augustin Bernard, Paul Moussard, Arabophones et Berbérophones au Maroc, In : Annales de Géographie, t. 33, n°183, 1924. pp. 267-282.

(١٢) أحمد بوبية، **قبائل زمور والحركة الوطنية**، مطبعة النجاح الجديدة، الطبعة الأولى، الدار البيضاء، ص. ١٢١.

(١٣) نفس المرجع السابق ونفس الصفحات.

(١٤) أحمد بوبية، **قبائل زمور والحركة الوطنية** ... م.س ص. ٢٩-١٢٠.

(15) Marcel LESNE, les Zemmour, Essai d'Histoire tribale, in, Revue de l'Occident musulmane et de la Méditerranée, in, Revue de l'occident musulmane et de la méditerranée n: 4 1967 pp .31-80 et 97 – 132.

(١٦) يشير الناصري إلى أن السلطان المولى عبد الرحمان غزا قبائل زمور سنة ١٨٤٠م وقضى على ثورة ابن الغازي الزموري وأودعه سجن الصويرة إلى توفي به. كما غزاهم أيضًا سنة ١٨٤٣م وفي آخر أيام السلطان كان يغزوهم

مرات عديدة حتى وافته المنية على ذلك سنة ١٨٥٩ بمكناس ودفنه بها، وينعتهم الناصري بالشياطين والأوباش لأنهم حسب المؤرخ تجاوزوا الحد في الإفساد وإخافة البلاد والعباد فأوقع بهم وقعة شنعاء كسرت من حدهم...وكتب السلطان إلى ابنه محمد الرابع يخبره بتفاصيل الواقعة لمزيد من التفاصيل انظر: أحمد بن خالد الناصري، "**الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**"، ج٩، صفحات :١١ – ٤٧-٤٨-٧٦-٧٧-١٣٤.

(١٧) المرجع نفسه ونفس الصفحات

(١٨) أحمد بن خالد الناصري، "**الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**" م. س، ج٩ ص ١٦٢.

(١٩) أحمد بوبية، **قبائل زمور والحركة الوطنية**... م.س، ص ٤٩.

(٢٠) المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

(٢١) بنعبد الله عبد العزيز، **معلمة المغرب**، مطابع سلا، ٢٠٠١، ص. ١١٥،

(٢٢) مولود رشاد، **مدينة الخميسات وباديتها على عهد الحماية (١٩١١-١٩٥٦م)**، أطروحة لنيل الدكتوراه في التاريخ المعاصر، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس، ٢٠١٥-٢٠١٦م، مرقونة، ص. ٣٦.

(٢٣) استشهد أحمد بوبية ببسالة أبناء المنطقة وعلى رأسهم امرأة اسمها "الطاهرة" كانت تذهب من مصغرة إلى الرباط لرفع شكواها إلى المصالح العليا ولم تكن تهاب أحدًا، وكان يهابها رجال المخزن والاستعمار على السواء. أحمد بوبية، **قبائل زمور والحركة الوطنية**، م. س، ص. ٤٩

(٢٤) أحمد بوبية، **قبائل زمور والحركة الوطنية**..م.س، ص.٥٠

(٢٥) روبير اسبينيون، **أعراف قبائل زيان**...، م.س، ص. ١٢٠

(26) A. Bertrand, «AMHARS» in Gabriel Camp, www.journal.openedition.org, vu le 12/03/2018

(٢٧) رحمة بورقية، **الدولة السلطة والمجتمع: دراسة في الثابت والمتحول في علاقة الدولة بالقبائل في المغرب**، دار الطليعة للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٩١، ص.٩٧.